بالنسبة لطلاب الأدب والنقد الأدبي يقدم الاستشراق مثالا رائعاً على العلاقات الداخلية والمتداخلة بين المجتمع والتاريخ والنصوصية . وفضلا عن ذلك فان الدور الثقافي (الحضاري) الذي لعبه الشرق في الغرب يربط بين الاستشراق والأيديولوجية والسياسة ومنطق القوة ــ وهذه أمور ذات صلة وثيقة ــ على ما أعتقد ــ بالاسرة الأدبية . أما بالنسبة لطلاب الشرق المعاصرين ، من الباحثين الجامعيين إلى صانعي السياسة ، فقد كتبت وفي ذهني هدفان اثنان : الهدف الأول هو تقديم سلسلة نسبهم الفكري لهم بطريقة لم يتم عملها من قبل . والثاني هو انتقاد الافتراضات غير المحصة في الغالب والتي يستند إليها عملهم في القسم الأكبر منه ، على أمل اثارة النقاش . أما بالنسبة للقارئ العام فان هذه الدراسة تعالج مسائل تنتزع منه الاهتمام دائماً ، وجميع تلك المسائل لا تمت بصلة إلى التصورات والمعالجات الغربية للآخر فحسب ، بل إلى الدور الفريد في أهميته والذي لعبته الحضارة الغربية في ما دعاه فيكو بعالم الأمم . وأخيراً وبالنسبة إلى القراء في ما يدعى بالعالم الثالث ، تطرح هذه الدراسة نفسها كخطوة نحو تحقيق فهم ليس للسياسة الغربية وللعالم غير الغربي في تلك السياسة بقدر ما هو فهم لقوة المقالة الثقافية الغربية ، وهي قوة يجري اعتبارها في كثير من الأحيان على نحو خاطئ بأنها مجرد قوة زخرفية أو « فوق بنيوية » وأملي يتركز على تبيان البنية الهائلة للسيطرة الثقافية ، وعلى الأخص بالنسبة للشعوب التي كانت مستعمرة في السابق ، لايضاح الاخطار والمجازفات التي ينطوي عليها استخدام هذه البنية وتطبيقها على انفسهم أو على الآخرين .

إن الفصول الثلاثة الطويلة والوحدات الاثنتي عشرة الأقصر منها والتي يقسم اليها هذا الكتاب ترمي إلى تسهيل العرض بقدر الامكان . فالفصل الأول وعنوانه « نطاق الاستشراق » يرسم دائرة كبرى حول كافة أبعاد الموضوع ، على صعيدين : صعيد الزمن التاريخي والتجارب التاريخية ، وصعيد الموضوعات الفلسفية والسياسية . والفصل الثاني « البنيات الاستشراقية واعادة تركيبها » ، يحاول تتبع تطور الاستشراق الحديث بواسطة وصف يعتمد التسلسل الزمني العريض ، وكذلك من خلال وصف لمجموعة من الأدوات والوسائل تؤلف القاسم المشترك لعمل شعراء وفنانين وعلماء على جانب من الأهمية ويبدأ الفصل الثالث ، وعنوانه « الاستشراق الآن » ، حيث توقف سلفه ، أي حوالي العام ١٨٧٠ . هذه هي فترة التوسع الكولونيالي العظيم في الشرق ، وتبلغ ذروتها في الحرب العالمية الثانية . أما القسم الأخير بالذات من الفصل الثالث فانه يصف الخصائص المميزة للانتقال من الهيمنة البريطانية والفرنسية إلى الهيمنة الأميركية . وأحاول أنا هناك أخيراً أن أرسم الخطوط العريضة للواقع الفكري والاجتماعي الحالي الذي يلازم حقيقة الاستشراق في الولايات المتحدة الأميركية .

٣ ــ البعد الشخصي

يقول غرامشي في « مذكرات السجن » : « إن نقطة البدء في التوسيع النقدي هي وعي المرء لحقيقة كونه بالفعل ، وهي « إعرف نفسك » كنتيجة للعملية التاريخية حتى تاريخه ، والتي رصدت فيك عدداً لامتناه من الآثار ، دون ان تترك قائمة جرد للموجودات » . والترجمة الانجليزية الوحيدة المتوفرة تترك تعليق غرامشي عند ذلك الحد على نحو يتعذر تفسيره أو تعليله ، بينما النص الايطالي لعبارة غرامشي ينتهي بالواقع مضيفاً ما يلي : « لذا يصبح أمراً إلزامياً في البداية ان نضع مثل تلك القائمة لجرد الموجودات »(١٦) .